**استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية : واقع أم وهم؟**

**أ. أمين محرز**

أفادت المدرسة الاستعمارية أنّ من بين الحُجج الّتي سوّلت لفرنسا غزو إيالة الجزائر وخوّلت لها الاحتفاظ بها، أنهّا كانت مستقلّة فعليًا عن الدولة العثمانية ولا نفوذ حقيقي للسلطان عليها.

أولاً : إنّ الرأي الشائع القائل بأنّ منح الباشوية لدايات الجزائر يعتبر بحدّ ذاته استقلالاً - أو بتعبير آخر انفصالاً - عن الدولة العثمانية، لهو رأيٌ مجانب للحقيقية التاريخية، إذ أنّ الدولة العثمانية أصلاً لم تتّبع مركزية\* صارمة تجاه حكم جزائر الغرب، بل كان حكمًا ذاتيًا اتّسمت خلاله تدخّلات الديوان الهمايوني بالمرونة، خصوصًا وأنّ عموم البلاد الجزائرية كما هو معلوم انضوت تحت السلطة العثمانية بإرادة أهاليها. ورغم أنّ الروابط ضعفت نسبيًا خلال القرن السابع عشر - وكانت أبرز مظاهر هذا التراخي ربط علاقات دبلوماسية مع الدول المسيحية بمعزل عن الدولة العثمانية - بسبب تناقص اهتمام الدولة بمجالها الغربي وتنفّذ الإنكشارية على سلطة الولاة، فإنّ حاجة الإيالة من وقتٍ لآخر للمجنّدين الأتراك العثمانيين لأجل ضمان استمرارية أوجاقها، حالت دون حدوث قطيعة وأبقت على أمارات الولاء والدعم العسكري قائمة إلى حين سقوط الجزائر عام 1830م. كما أنّه تجدر الإشارة إلى أنّ حكّام الإيالة، الّذين لم يكونوا يرسلون إتاوة أو هدايا إلى الباب العالي قبل سنة 1711م إلاّ في مناسبات نادرة، جعلهم سعيهم في نيل الباشوية يرسلون هدايا - كان يتولّى تسليمها موظّف رفيع المستوى دعي آغا اﻟﭙﺸﻜﺶ أو قائد الهدية - بشكلٍ أكثر تواترًا كتعبير رمزي لتبعيتهم. وبناءً على ما سبق ذكره، يمكننا القول أنّ صيرورة الداي ممثّلاً للسلطان صبّ في خانة تكريس استقلالية - أكثر من أيّ شيءٍ آخر - اكتسبت في الواقع سالفًا خلال فترة الآغوات.

\* المركزية تهدف إلى تركيز السلطات في مركز قرار واحد، والّذي يمكن أن يفوّض جزءًا من هذه السلط إلى أعوانه عن طريق ما يسمى باللاتمركز (déconcentration) .هذه العملية عملية تُباشر داخل المنظومة الإدارية، حيث أن العلاقة التي تربط بين مختلف مكونات هذه المنظومة هي علاقة مبنية أوّلا على سلطة تراتبية (Pouvoir hiérarchique)، وثانيا على مبدأ التعيين. أمّا اللامركزية، فإنها تميل إلى تعدّد مراكز القرار وذلك بتفويض السلطة ((pouvoir أو التخلّي عنها لصالح المعنيين بالأمر أو لممثليهم المباشرين، حيث أنّ العلاقة بين السلطة المركزية وبين المنتخبين المحليين مبنية أولا على المراقبة على الأعمال وليس على الأشخاص، وثانيا على مبدأ الانتخاب.

ثانيًا : إنّ الرأي الأقلّ تواترًا، الّذي اعتبر ثورة الآغوات سنة 1659 "انفصالاً" - وهذا المصطلح ما هو إلاّ تعبير آخر عن الاستقلال - عن الدولة العثمانية غير صحيح أيضًا ؛ ويكفي للتثبّت من ذلك استعراض سلسلة ردود الأفعال أو الانعكاسات الّتي تمخّضت عنها تلك الواقعة : فقد غضب الصدر الأعـظم من انقلاب أوجاق الجزائر، وعدّه خروجًا عن طاعة السلطان، حيث قام بإرسال فرمان إلى الجزائريين ينذرهم فيه : "**أخيرًا لن نرسل إليكم واليًا، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر، فالجزائر إن كانت وإن لم تكن شيء واحد، و من بعد ذلك إن اقتربتم من الممالك العثمانية فلن تكونوا راضين**" ؛ كما أرسل فرمانًا آخر إلى الموانئ في جميع السواحل العثمانية، وإلى والي مصر و شريف مكّة، يطلب منهما منع الجزائريين من الذهاب إلى الحجّ وعدم بيع السلاح لهم، وعدم السماح لهم بالاقتراب من السواحل العثمانية، ممّا كان يعني تعطّل حركة الحجّ والتجارة إلى المشرق مع ما قد يسبّبه كلّ ذلك من استياء في أوساط الرعية والعسكر على حدّ سواء، فضلاً عن توقّف عمليات تجنيد الإنكشارية الحيوية لاستمرار الأوجاق.

وبالفعل، لقد أبدى عدد متزايد من الجزائريين، وبالأخصّ من "الأتراك"، استياءه ممّا آلت إليه العلاقات مع الدولة العثمانية من قطيعة وحصار ؛ و لذا، حاولوا إعادة الأمور إلى نصابها مع الباب العالي، وقاموا بإرسال وفدٍ خلال شتاء 1661 لطلب الشفاعة من السلطان ولتجديد الولاء له. ولمّا حظي أعضاء هذا الوفد بمقابلة السلطان، اشتكوا له وضع البلاد وأقرّوا : "**لو أرسلت لنا كلبًا لقبلناه باشا علينا**" ؛ ولكن الأمر كلّه كان بيد الصدر الأعظم كوبرولي الّذي لم يستمع لهم ولم يقبل استشفاعهم. وهكذا، لم يملك الوفد الجزائري من خيار سوى الانتظار بصبر أن يلين موقف المذكور.

سيتغيّر موقف الباب العالي في غضون سنة 1662، بيد أنّ هذا التحوّل لم يكن راجع أساسًا إلى الهدايا والعشرة آلاف سكّة ذهبية الّتي وزعها الوفد، بل إلى الهزائم البحرية الّتي تكبّدها الأسطول العثماني حينها أمام البنادقة في بحر إيجة، والّتي أبرزت الحاجة إلى الإستعانة بالقوّة البحرية الجزائرية المتمرّسة في مواجهة البندقية وحلفائها. وبناءً على ذلك، ولّى السلطان باشا جديد ليست له صلاحيات حقيقية كممثّل عنه لدى أوجاق الجزائر. وهكذا حافظت حاجة كلّ طرف للآخر على روابط الولاء والتبعية بين الدولة العثمانية وإيالتها البعيدة.

وأخيرًا، بالوسع الردّ على المتحجّجين بانفصال الجزائر بدعوتهم إلى الرجوع إلى الكمّ المعتبر من المراسلات المتبادلة بين الجزائر وإسطنبول المحفوظة في دور الأرشيف، وكذلك إلى تدبّر الطرح التالي : "**إن صحّ أنّ إيالة الجزائر كانت مستقلّة فعليًّا عن الدولة العثمانية، فذلك يعني أنّها كانت قادرة نظريًا على فكّ ارتباطها كلّيًا**"، والعكس صحيح.

**سؤال :** قم بمناقشة مفاهيم الاستقلال و الاستقلالية والحكم الذاتي، مع مراعاة تدعيم ذلك بأمثلة مأخوذة من التاريخ العثماني واختيار الأنسب منها في سياق الإجابة.

**المصادر و المراجع المعتمدة :**

- أحمد عبيد، "**التأريخ الجزائري: تقييم و نقد - حالة الجزائر العثمانية**"، في : إنسانيات 47-48، 2010، ص ص. 57-75.

- عمّار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

- مبارك بن محمد الميلي. **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج. 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964.

- شحاتة، حسن إبراهيم. **أطوار العلاقات المغربية العثمانية. قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510-1947)**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1981.

- جميل، عائشة. **الجزائر والباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-1830م**، دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2017.

- كوران، آرجمنت. **السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر**، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، 1970.

- حمّاش، خليفة إبراهيم**. العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798 إلى 1830م**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الإسكندرية، 1988.

- زهرة، زكية. **التنافس الفرنسي الإنكليزي على الجزائر وموقف الباب العالي منه (1792-1830)**، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 1997.

- فلّوح، عبد القادر. **العلاقات الجزائرية العثمانية في الفترة (1233-1246ﻫ الموافق ﻟ 1818-1830م)، على ضوء وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية**، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2010.

- محرز، أمين. **الجزائر في عهد الآغوات (1659-1671م)**، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2008.

- مريخي، رشيد. **الجزائر في عهد الداي مصطفى باشا 1212-1220ﻫ/1798-1805م**، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2011.

- بن نعماني، سيد أحمد. "**وظيفة وكيل الجزائر لدى الدولة العثمانية وبعض إيالاتها من خلال بعض وثائق الرصيدين العثمانيين الموجودين في الجزائر**"، في : مجلّة الحكمة للدراسات التاريخية، 1، 2013، ص ص. 198-207.

- التميمي، عبد الجليل. "**أوّل رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأوّل سنة 1519**"، في : م.ت.م.، 6 (يوليو 1976)، ص ص. 116-120.

- حمّاش، خليفة. "**الجزائر والحرب اليونانية العثمانية (1821-1827م)**"، في : م.ت.م. 65-66، أوت 1992، ص ص. 175-185.

- الطبايلي، عبد الحفيظ. "**الولايات المغاربية في الأرشيف العثماني. قراءة في بنية الوثيقة العثمانية**"، في : العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، ط.1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2005، ص ص. 35-71.

- Charrière, E. **Négociations de la France dans le Levant ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France à Constantinople et des ambassadeurs, envoyés ou résidents à divers titres à Venise, Raguse, Rome, Malte et Jérusalem, en Turquie, Perse, Géorgie, Crimée, Syrie, Égypte, etc. et dans les États de Tunis, d’Alger et de Maroc**, 4 T., Imprimerie nationale, Paris, 1848-1860.

- Grammont. H.D. de, **Correspondance des consuls d’Alger (1690-1742)**, Ernest Leroux, Paris, 1890.

- Michel Hervé, **Relations entre la régence d’Alger et la Sublime Porte du XVIe au XVIIIe siècle**, 2 T., Thèse de doctorat en Histoire et civilisations, EHESS, Paris, 2003.

- Mantran, R. "**L’évolution des relations entre la Tunisie et l’Empire Ottoman du XVIe au XIXe siècle. Essai de synthèse**", in : C.T. 26-27, 1959, pp. 319-333.

- Mantran, R. "**L’évolution des relations politiques entre le Gouvernement ottoman et les Odjaks de l’ouest du XVIe au XIXe siècle**" in : R.H.R. 2-3, 1964, pp. 51-66.

- Vatin, J.-C. "**L’Algérie en 1830, Essai d’interprétation des recherches historiques sous l’angle de la science politique**", in : R.A.S.J.E.P. 7, 1970, pp. 977-1058.

- Watbeld, E. "**Pachas\_ Pachas-Deys**", in : R.A. 17, 1873, pp. 438-443.